

## مقدمة

غطس شباب سمر البصرة، بعضلاتهم المفتولة، وسواعدهم الموشومة في بركة السباحة الواقعة في الحديقة الخلفية للقصر الجمهوري الذي يحتل قلب المنطقة الخضراء، بينما استلقى آخرون، بما يرتدون من سراويل عريضة ونظارات شمسية على أرائك مظلة بأشجار النخيل الباسقة، يتناولون المقرمشات، ويرتشفون الشاي المثلج. استرخى -في الوقت ذاته، في الجانب المقابل- رجال بيزات الكاكي، ونسوة يرتدين ما هورقيق من الملابس، في أحد الأكواخ الخشبية، ليعمد بعضهم إلى قراءة ما هو مبتذل من الروايات، ويستلقي آخرون بعد تناول الطعام في المقصف الحافل بالمأكولات، بينما يستمعون إلى موسيقى «الهيپ هوب» الأمريكية. عمل عشرة من العراقيين، من ذوي الأجساد النحيلة، بقمصانهم وسراويلهم الزرقاء المتماثلة، بين الفينة والأخرى، على تنظيف الأرض، وتشذيب الحدائق، وري المزروعات، يأترون بإمرة أمريكي ضخم الجثة، كث الشاربين، وقد بدأ جميعهم، عن بعد، كمجموعة من المساجين المقيدون بالسلاسل.

مثلت بركة السباحة رقعة هادئة داخل المنطقة الخضراء، الأمريكية، الممتدة على مساحة سبعة أميال مربعة في قلب بغداد، ليقطع سكونها ضجيج مروحيات بلاك هوك، التي تحمل إشارة الصليب الأحمر، وتحلق على ما هو منخفض من الارتفاعات؛ بغية نقل المصابين إلى المستشفى الواقع أسفل الشارع. عمد بعضهم إلى متابعة المروحيات بأنظارهم، بينما لم يكثرث الغالبية لأمرها، على النقيض من أصوات هواتفهم النقالة. لم توفر الشركة الأمريكية، التي أقامت الشبكة الهاتفية، خدمة البريد الصوتي، لتمثل إجابة المكالمة السبيل الوحيد لمعرفة ما يريد المسؤول الأرفع شأنًا، أو مكان إقامة الحفلات في وقت لاحق من الأمسيات.

ركزت الأحاديث المتبادلة على ما يتعلق من خطط بتمضية العطل في البحر الميت، وجلسات السمر في الليالي الفائتة، ومن تحلت بالشجاعة لأخذ حمام شمسي،

قبالة بركة السباحة، وسط العشرات من الرجال الراغبين. تحدث أحدهم بذلك الصدد، قائلاً لصحبه: إنه يرى النساء كافة جميلات، بعد قضاء بضعة أشهر في المنطقة الخضراء المكتظة بالذكور.

وافق التاريخ، في حينه، حزيران / يونيو 2004، بما يقل عن شهر من انتهاء الحكم الأمريكي في العراق. بقي عدد من البيروقراطيين - في القصر ذي الجدران الرخامية، الذي يمثل مقر إدارة الاحتلال - معزولين في مكاتبهم المكيفة، يعملون ثماني عشرة ساعة في اليوم، لإنجاز ما أمكنهم من المهام الموضوعة على لأحتهم، قبل أن يغادروا الديار. كافحت إحدى من أعرهن من النسوة، وهي والدة أربعة أبناء من ديلاوير، بغية توظيف العراقيين لإعادة افتتاح سوق بورصة بغداد. عكف أحد المحامين - ممن عملوا في السابق لدى رئيس المحكمة العليا ويليام رنكويست - على مراجعة مسودة قانون يلزم الأحزاب السياسية العراقية بالكشف عن حساباتها المالية، وفق النمط الأمريكي. انكب شاب أشقر، في أوائل العشرينيات، من المنتمين إلى كاليفورنيا، على إعداد ما يرسله إلى واشنطن من تقارير، تظهر ما يحققه الأمريكيون من تقدم، وما ترتقي به الحياة في العراق بصورة يومية.

لم يمثل أولئك القاعدة، بل كانوا شواذ عنها. استسلم معظم من في القصر ببساطة، يلتمسون العزاء فيما يمكن أن يمارسوه من لهو في بركة السباحة، قبل الذهاب إلى حانة شهرزاد، في فندق الرشيد، عند مغيب الشمس؛ بغية احتساء الجعة التركية، والنبيد اللبناني، وغير ذلك من أصناف الشراب. عمد أولئك - علاوة على ذلك - إلى ابتياع الساعات، والقداحات، وما يحمل صور صدام من عملة قديمة، ناهيك عن تناول البييتزا في مقهى المنطقة الخضراء، ودجاج «الكنغ باو» في المطاعم الصينية الواقعين على مقربة من القصر، والتدرب في صالة التمارين الرياضية، أسفل صورة برج مركز التجارة العالمي، والاتصال بأصدقائهم في الولايات المتحدة، بصورة مجانية، عبر ما منحتهم الحكومة من هواتف نقالة، علاوة على إقامة حفلات الوداع الصاخبة، وإرسال الرسائل الإلكترونية؛ بغية الحصول على وظائف في حملة بوش الانتخابية، عند عودتهم إلى الولايات المتحدة. بلغ التعب منهم

مبلغه، في نهاية المطاف، ليلوذوا بغرفهم، ويشاهدوا ما ابتاعوه من أفلام مستنسخة - اثنان مقابل الدولار - من الصبية العراقيين.

التقيت جون أغريستو للمرة الأولى في حديقة القصر. كان قد وصل بغداد، قبل تسعة أشهر، بغية تولي المهمة الشاقة المتمثلة في إصلاح نظام الجامعات في العراق - حيث انتسب أكثر من 375000 طالب إلى اثنتين وعشرين من الجامعات، التي تعرض معظمها للتخريب - على وجه التقريب - جراء أعمال النهب التي أعقبت الإطاحة بصدام حسين. لم يمتلك أغريستو أي خلفية في مجال إعادة الإعمار، في مراحل ما بعد النزاع، ناهيك عن افتقاره إلى أي من الخبرات فيما يتعلق بالشرق الأوسط. لم يزد عدد طلاب سانت جونز، الكلية التي كان يديرها، عن الخمس مئة، علاوة على ذلك، ليرتبط بمن هو مهم من المعارف: سبق لزوج دونالد رسمفيلد، وزير الدفاع، العمل في الكلية ذاتها، ناهيك عن عمل زوج ديك تشيني، نائب الرئيس، مع الرجل في وكالة «المنح القومية للإنسانيات».

بلغ أغريستو الثامنة والخمسين، حين التقيته، وقد كان قصير القامة، ممتلئ الجسد، ذا شعر فضي خفيف، وشارب ذي مسحات رمادية، وأنف بارز. أحب الرجل، بكل الأحوال، مقارنة مظهره بغروشو ماركس.

خاطبني أغريستو، بينما كان ينفث دخان غليونه، أسفل ظلال نخلة باسقة - حيث اندمست أماكن التدخين المغلقة في المنطقة الخضراء - قائلاً: «أتيت العراق بوفرة من التفاؤل. رأيت صور الناس يحتفلون عند الإطاحة بتمثال صدام. رأيتهم يضربون صورته بأحذيتهم».

اختلف العراق الذي خبره الرجل - بكل الأحوال - إلى حد بعيد عما كان يتوقع. أضحى زيارته إلى ما كان يود إعادة بنائه من جامعات، وتطويره من كليات، أكثر خطورة بمرور الزمن، مما أسهم في ندرتها، في نهاية المطاف. أخبرني أغريستو، علاوة على ذلك، عن تعرض طاقم موظفيه العراقيين لتهديدات المتمردين، ناهيك عن تعكير صفو أمسياته جراء ما يسقط على المنطقة الخضراء من قذائف الهاون،

وإفشال خططه، المتعلقة بإصلاح المئات من المباني الجامعية، من قبل البيت الأبيض. قدّر الرجل حاجة الجامعات العراقية إلى أكثر من مليار دولار، بغية تحويلها إلى مراكز تعليم فاعلة، ليحصل على ثمانية ملايين دولار، لا أكثر، من أموال إعادة الإعمار. رفضت الجامعات والكليات الأمريكية، علاوة على ذلك، التماسات أغريستو للحصول على عونها. كان قد سأل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية توفير 130 ألف مقعد دراسي، ليحصل -في نهاية المطاف- على ثمانية آلاف، لا أكثر.

ازداد انفعال الرجل، بينما كان يتحدث، قبل أن يلوذ بالصمت، ويحرق في بركة السباحة، نافثاً دخان غليونه بعيداً. استدار إليّ بوجه شاحب، بعيد لحظات، قائلاً: «أنا محافظ جديد خذل من قبل الواقع».

